سوسيولوجيا الادب عند الغربيين

ا.م.د. محمد جاسم محمد عباس الحسيني
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بابل، محافظة بابل، العراق
mohmmed.abbass@uobabylon.edu.iq

Sociology of literature inWesterners (foundations,premises and schools)

Dr. Mohammed Jassim Mohammed Abbas Al - Husseini
Department of Arabic Language, Faculty of Arts, University of Babylon, Babil Province, Iraq

الملخص

الهدف الاساس من اعداد هذا البحث الموسوم بـ (**سوسيولوجيا الادب عند الغربيين**) هو تتبع المنابع الأولى التي انبثق منها منهج سوسيولوجيا الادب بوصفه علما له اسسه واركانه وعلماؤه ومؤلفاته واجراءاته وذلك من كتب الغربيين حصراً ما دفعني الى البحث والرجوع الى الدراسات الاجتماعية والفلسفية فضلاً عن الدراسات الأدبية.

وتناولت بالدرس مقدمات سوسيولوجيا الأدب والمنطلقات والمحاور الرئيسة واهم دعاة ومدارس الفكر الاجتماعي بصورة عامة والادبي بصورة خاصة وارتكزت الدراسة على دعاة الفكر الماركسي أمثال كودويل وماشيري وفوكو وماركس وغيرهم ودعاة الفكر الالماني متمثلين بمعهد فرانكفورت أمثال هوركهايمر وماركوز واريك فروم وغيرهم ومن ثم اثبت مجموعة من النتائج التي توصلت اليها من خلال هذا البحث وأهمها ان سوسيولوجيا الادب تبلور على يد الغربيين حتى غدا علماً مستقلاً ومنهجاً نقدياً له ثقله وأثره الفعال في تحليل النصوص على وفق المؤثرات الخارجية كما أن الدراسة اكدت أن دعاة المنهج الاجتماعي يعدون المبدع عضواً في المجتمع ويمكن دراسته ككائن اجتماعي بكل ما يحيط به من ظواهر.

الكلمات المفتاحية: بنيوية، سوسيولوجيا الادب، الماركسية، المنهج الاجتماعي.

Abstract

The main objective of preparing this research is to trace the origins of the sociology of literature as a basis for its foundations, its staff, its scientists, its authors and its procedures, from the **Westerners**into Arabic exclusively, which led me to research and return to social and philosophical studies. For literary studiesn

The study focused on the most important advocates of Marxist thought such as Cadill, Machiri, Foucault, Marx and other German thinkers, such as Horkheimer, Markus and Eric Frum, and others. During this research and the most important that the sociology of literature crystallized by Westerners until tomorrow independent science and a critical approach to his weight and effective impact in the analysis of texts according to external influences and the study stressed that the advocates of Mnj Ta'adi consider the creator a member of the community and can be studied as a social organism with all its surrounding phenomena

Keywords: structuralism, sociology of literature , Marxism, social approach

المقدمة

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى اله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين ومن والاه وبعد:

فإن الهدف من هذه الدراسة هو تتبع الأسس التي يقوم عليها سوسيولوجيا الأدب عند الغربيين ولم يكن البحث عن المصادر المترجمة عملاً سهلاً فقد اظطررت الى الرجوع الى الدراسات الاجتماعية والفلسفية فضلاً عن الدراسات الأدبية.

وقد تعرضت الدراسة الى بواكير المنهج الاجتماعي وسيرورته المضطربة المتشعبة حتى استقر علماً له اسسه ومبادؤه وعلماؤه.

و عمدتُ الى تقصي دواعي النشأة للعلم الاجتماعي وأهم دعاة المنهج الاجتماعي الجدلي واهم الصراعات التي واجهت نشوء افكاره ومبادئه وأهم النتائج التي توصل اليها من خلال اسهاماته المنشورة.

وعرضت لأهم الصراعات الفكرية بين مدارس علم اجتماع الأدب ولاسيما المدرسة الماركسية والمدرسة

الالمانية والأميركية ومدرسة لوسيان غولدمان باعتباره المفكر الذي تبلورت على يديه البينيوية التكوينية.

بواكير سوسيولوجيا الادب

يبدأ النقد الاجتماعي من الاعتقاد بأن علاقات الفن بالمجتمع مهمة وحيوية ويمكن لهذه العلاقات أن تعمل على تنظيم وتعميق استجابة الفرد للعمل الفني وعلى ان الفن لا يولد من فراغ فهو ليس عملاً شخصياً ولكنه عمل مؤلف قائم في زمان ومكان معينيين.[1، ص63].

وعلى هذا فالناقد الاجتماعي يعنى بتفهم البيئة الاجتماعية وتفهم مدى استجابة الفنان لها والمسلك الذي يسلكها بازاءها [1، ص65].

ولقد تتبع (ارموند ولسون) تيار النقد الاجتماعي وأرجعه الى (فيكو) في القرن الثامن عشر ودراسته كلام هوميروس والتي تكشف عن الاوضاع الاجتماعية التي عاش فيها الشاعر اليوناني، ولكن الشاعر الفرنسي (هيولييت تين) هو الذي أوصل هذا النقد الى أكمل حالاته وذلك من خلال استنتاجه الشهير القائل: إن الأدب ناتج عن ثلاثة عوامل (العصر، الجنس، البيئة) ثم جاء (ماركس وانجلز) ليقدما عاملاً آخر هو (وسائل الانتاج) وبذلك تطور فرع آخر خاص من المدخل الاجتماعي هو النقد الماركسي [1،67].

منطلقات علم اجتماع الادب :

1- العلاقة الجوهرية بين الحياة الاجتماعية والابداع الادبي لاتهمّ مضمون هذين القطاعين من الواقع البشري ولكنها تهم بالبنى الذهنية وهي مايمكن تسميتها بالمقولات التي تنظم في وقت واحد الوعي التجريبي لفئة اجتماعية معينة والكون التخيلي الذي يبدعه الكاتب.

2- تجربة الفرد الواحد هي تجربة اكثر ايجازاً من ان تقدر على خلق بنية ذهنية من هذا النوع ولايمكن لهذه الاخيرة ان تنتج الا عن النشاط المشترك لعدد مهم من الاشخاص الموجودين في وضعية مماثلة اي من الافراد الذين يشكلون فئة اجتماعية ذات امتياز والذين عاشوا لوقت طويل وبطريقة مكثفة مجموعة من المشاكل وجدّوا في البحث عن حل ذي دلالة.

يؤكد هذا المنهج الدلالة الاجتماعية للادب والفن وبيان الصلة بين الأثر الأدبي والمجتمع الذي انتجه وهو في تفسيره للاثار الادبية يصدر عن هذه الدلالة الاجتماعية ان للفن وظيفة اجتماعية والفنان يعبر واعياً او غير واع عما يسود مجتمعه وعصره من اتجاهات ومثل وتطلعات وامال فالفنان المشبع بأفكار وتجارب عصره قد يدفعه طموحه لا الى تصوير الواقع فحسب بل إلى تشكيلة وصياغته.

من هذا يتبين ان هذا المنهج يدرس الادب من الخارج وان دراستنا للمنهج الاجتماعي لا تنفصل عن دراسة المنهج التاريخي.

وتقول الناقدة الفرنسية دي ستال: اننا لا نستطيع فهم الاثر الادبي وتذوقه تذوقاً حقيقاً بمعزل عن المعرفة بالظروف الاجتماعية التي أدت الى الابداع.

وهذه المقولة كان لها الاثر في نشأة المنهج الاجتماعي فهي تؤكد ان سلامة النقد العلمي الاجتماعي لا تقوم الا من حيث تأثيره في الانسان وممارسته الاجتماعية بمعنى قدرة الانسان على تغيير المجتمع ومستوياته الثقافية والانسانية من خلال قراءاته ومساعيه وهكذا يكفل التقدم المستمر للمجتمع بتهيئة الظروف التي يمكن للشخصية ان تنمو في ظلها [3، ص16]

3- العلاقة المشار اليها بين البنية للوعي الخاص بفئة اجتماعية والبنية التي تنظم كون العمل الادبي تكون في اكثر الاحيان ملاءمة للباحث متماثلاً تماثلاً دقيقاً بهذا القدر او ذاك الا انها غالباً ما تشكل مجرد علاقة ذات دلالة.

4- اذا انطلقنا بهذا المنظور فسيصبح بمقدورنا لا ان ندرس قمم الابداع الادبي مثلما ندرس الاعمال المتوسطة فحسب وانما ستنكشف الاولى خاصة على انها ممكنة التناول من طرف البحث الوضعي، ومن جهة أخرى فإن البنى المقولاتية التي يستند اليها هذا النوع من علم اجتماع الادب هي وجه الدقة ما يمنح العمل الادبي وحدته اي ما يمنحه احد العناصر الأساسية المكونة لطابعه الجمالي

5- البنى المقولاتية: التي تنظم الوعي الجمعي التي يتم نقلها الى الكون التخييلي المبدع من طرف الفنان ليست واعية وليست لا واعية بالمعنى الفرويدي للكلمة ذلك المعنى الذي يفترض كبتاً ما ولكنها سيرورات غير واعية مماثلة من بعض الجوانب لتلك التي تنظم عمل البنى العضلية او العصبية وتحدد الطابع الخاص لحركاتنا وايماءاتنا دون ان تكون بسبب ذلك لا مكبوتة ولا غير واعية لهذا السبب فإن الكشف عن هذه البنى في أغلب الأحيان وفهم الناتج الادبي ضمن ذلك هو أمر يتعذر بلوغه على الدراسة الادبية وعلى الدراسة المتجهة نحو النيات الواعية للكاتب او نحو علم النفس العميق ولايمكن ان يبلغه الا بحث من النمط البنيوي السوسيولوجي وينجم عن ذلك ان الباحث لكي يفهم العمل الذي هو بصدد دراسته ان يتقيد بالمقام الاول بالبحث عن البنية التي تكاد تشمل كلية النص

وذلك استناداً على قاعدة اساسية وهي ان الباحث عليه ان يحيط بمجمل النص وأن لا يضيف اليه اي شيء وان عليه تفسير تكوينه محاولاً اظهار كيف والى اي حد يمتلك العمل الادبي طابعاً وظيفياً. [2، ص16].

كما ان النقد الاجتماعي يمكن أن يصبح نقداً عقيماً ومجرداً من كل قيمة للمجتمع إذا كان نقداً أعمى وإذا ما حصر نفسه في حقائق منفصلة عن حركة المجتمع اضافة الى ذلك فإن هذا المنهج يمكن ان يصبح عملاً هداماً بصورة ملحوظة. ولكي يكون هذا النقد أداة للتقدم لابد أن يكون موجهاً توجيهاً اشتراكياً اي جزءاً من عملية الحكم الذاتي التي يصبح عن طريقها سيداً لظروف وثمار عمله فلا بد من ان يزخر بالاحساس بالمسؤولية. [3، ص38]

أسس المنهج الاجتماعي

ان هذا الاتجاه يربط المفاهيم الفنية بالقيم الاجتماعية والواقعية ففي اميركا اهتم كل من (هاويلز) و (جاك لندن) و(هاملن جارلاند) بعلاقة الادب بالمجتمع .

وقد وضع (جون ماسي) كتابه (روح الادب الاميركي) 1908 بناء على وجهة نظر اجتماعية.

ولكن في اثناء الازمة الاقتصادية بدأ الكتاب يضيفون الى دراستهم للادب كمرآة للمجتمع وسيلة قوية للحكم وتتمثل في التفسير والتقييم للقوى الاجتماعية وكانت المحصلة النهائية تتمثل في مدخل نقدي فعال ورائع واصبح بالامكان تحديد المحك الرئيس لهذا النقد الاجتماعي في (المادية الجدلية) وبالتالي اصدار احكام نقدية قوية [1، ص63].

لقد اتفقت اراء عدة على ان (لوسيان غولدمان) هو الذي تبلورت على يديه البنيوية التكوينية بشكل واضح في النقد الادبي مفيداً ممن سبقه امثال الناقد المجري (جورج لوكاتش) الذي التقى به في عام (1944) واعجب بكتبه (الروح والاشكال، نظرية الرواية، تاريخ الوعي الطبقي)[4، ص27].

واهم اثباتات الفكر التكويني هي تلك المقولة بأن كل تفكير في العلوم الإنسانية يتم من داخل المجتمع لا من خارجه ذلك على انه جزء من الحياة الفكرية لهذا المجتمع وبذلك فهو جزء من الحياة الاجتماعية الكلية.

وعلى هذا الأساس فإن هذا الفكرة لا تشكل بداية مطلقة وانما تنظم مقولات المجتمع الذي يدرسه الفكر او مقولات مجتمع متفرع عنه بمعنى ان الموضوع المدروس هو عنصر مكون بل احد اهم العناصر المكونة لبنية فكر الباحث [2،ص8].

لقد أثبت (لوسيان غولدمان) افكاراً أساسية في كتاب (المنهجية في علم الاجتماع الادبي) منها ان لكل علم اجتماع جدلي تكويني دعامة أساسية مفادها أن الوقائع البشرية أجوبة لذات فردية او جماعية تشكل في جملتها محاولة لتعديل وضع معين نحو اتجاه ملائم لطموحاته وهذا يستتبع ان كل سلوك او كل حدث بشري يمتلك طابعا ذا دلالة لا يكون واضحاً دوما وإنما ينبغي على الباحث الكشف عنه من خلال عمله، أي ان كل سلوك بشري على الأرجح يمكن ترجمته بوساطة الباحث الى الفاظ تدور حول وجود مشكلة عملية ووجود سعي الى حلها[2،ص9].

انطلاقاً من هذين المبدئين ينادي التصور البنيوي التكويني بتحويل جذري لمناهج علم الاجتماع والأدب وهو تحويل كان جورج لوكاش بلا منازع أول دعاته فلقد استندت كل الاعمال السابقة عليه واغلب الاعمال الجامعية منذ ذلك الحين ولا زالت تستند في هذا الاتجاه على مضمون الاعمال الأدبية والعلاقة بين هذا المضمون ومضمون الوعي الجمعي أي مضمون طرق التفكير والسلوك التي يقوم بها الناس في حياتهم اليومية ومن هذا المنظور نصل بطبيعة الحال الى النتيجة القائلة إن هذه العلاقات تصبح أوفر عدداً وعلم الاجتماع اكثر فاعلية كما أبان صاحب الكتابات المدروسة عن نقص الخيال المبدع لديه واكتفى برواية تجاربه مدخلاً عليها اقل عدد ممكن من التغييرات هذا النمط من الدراسة بفعل المنهج البنيوي التكويني يكسر وحدة العمل وهو يهتم بصفة خاصة بما هو مجرد إعادة انتاج للواقع التجريبي والحياة اليومية [2،ص1].

فقد أكد (لوسيان غولدمان) في كتابه ان علم اجتماع الادب يتضح اكثر خصوبة كلما كانت الاعمال المدروسة اكثر توافقاً، فضلاً عن ذلك فأنه يبحث في هذه الاعمال عن الوثيقة اكثر مما يبحث عن الادب.

نتائج منهج سوسيولوجيا الادب

إن الأسس التي يقوم عليها علم اجتماع الادب تؤدي إلى نتائج تقول بعمق المناهج التقليدية في دراسة الوقائع الاجتماعية والأدبية واهم تلك النتائج:

1- عدم إيلاء أهمية خاصة في فهم العمل للنيات الواعية للافراد والنيات الواعية لكتاب الاعمال الأدبية وعلى العكس من طروحات عدد معين من الفلاسفة أمثال ديكارت او سارتر فان الدلالة لا تظهر مع الوعي ولا

تتواجد فيه اتخذت البنية الذهنية المنتظمة للعمل الادبي بفضلها طابعا وظيفياً.

2- عدم المبالغة في تقدير أهمية الفرد حين القيام بالتفسير الذي هو قبل كل شيء البحث عن الذات الفردية او الجماعية التي اتخذت البنية الذهنية المنتظمة للعمل الادبي بفضلها طابعاً وظيفياً.

3- ان ما ندرج علي تسميته بـ (التأثيرات) لا يملك أي قيمة تفسيرية ويشكل مشكلة على الباحث تفسيرها فثمة في كل لحظة عدد مهم من التأثيرات القابلة لأنها تمارس فعلها على كاتب ما، وما ينبغي تفسيره هو لماذا لا يمارس منها اثره حقاً سوى عدد قليل واحد فقط ونختصر القول بـأن الفهم مسألة تتعلق بالتماسك الباطني للنص وهو يفترض ان نتناول النص حرفياً كل النص ولاشيء غير النص وان نبحث داخله عن بنية شاملة ذات دلالة . اما التفسير فمسألة تتعلق بالبحث عن الذات الفردية او الجماعة. [2،ص14 - 16]

علاقة سوسيولوجيا الادب بالتحليل النفسي:

يشترك المنهج البنيوي التكويني بالتحليل النفسي في ثلاثة عناصر أساسية هي:

1- التأكيد على ان كل سلوك بشري يمثل جزءاً على الأقل من بنية واحدة ذات دلالة.

2- إنه لأجل فهم هذا السلوك ينبغي إدراجه في هذه البنية التي ينبغي على الباحث الكشف عنها.

3- التأكيد على ان هذه البنية لا يمكن فهمها حقاً إلا إذا أحيط بها في تكوينها الفردي او التاريخي على التوالي.

أما الاعتراض الناجم من تلك العلاقة فهو أن التحليل النفسي يحاول تقليص كل السلوك البشري الى ذات فردية والى صيغة ظاهرة او مصعدة من صيغ الرغبة في الموضوع في حين ان علم الاجتماع التكويني يفصل أنماط السلوك الفردي التي يدرسها التحليل النفسي عن أنماط السلوك ذات الطابع التاريخي.[2،ص16]

أما عمل الباحث في علم اجتماع الادب فمن البديهي في هذا الميدان التكويني حين يتناول البحث عن مؤلفات عديدة سيجد نفسه مدفوعاً انطلاقاً من هذه الضرورة الى إزالة سلسة من المعطيات التجريبية التي بدت له في البداية جزءاً من الموضوع المدروس ومدفوعاً الى اغنائه بمعطيات أخرى لم يسبق له ان فكر فيها في اثناء بداية عمله.[2،ص21]

المنهج البنيوي التكويني في النقد الادبي:

تنطلق البنيوية التكوينية من الفرضية القائلة: إن كل سلوك إنساني هو محاولة لإعطاء جواب دلالي على موقف خاص ينزع الى إيجاد توازن بين فاعل الفعل والموضوع الذي يتناوله أي العالم المحيط به.

وضمن هذا المنظور تقتضي دراسة الوقائع الإنسانية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية جهداً لإلقاء الضوء على هذه الوقائع باستخلاص ضروب التوازن. [5،ص228]

فالدراسة السوسيولوجية تتوصل بسهولة في دراسة المبدعات الثقافية الكبرى إلى استخلاص الروابط الضرورية بإلحاقها بوحدات جماعية يمكن إلقاء الضوء على تركيبها بسهولة ولاشك في ان هذه الوحدات ليست سوى شبكات معقدة من العلاقات الفردية.[5، ص23]

و يوجد اختلاف بين سوسيولوجيا المضامين والسوسيولوجيا البنيوية فالأولى ترى أن المبدع انعكاس للوعي الجمعي أما الثانية فترى فيه العكس أحد العناصر المكونة والمقومة الأهم في هذا الوعي والعنصر الذي يسمح لأعضاء المجموعة بوعي ما يفكرون ويشعرون به دون أن يعرفوا موضوعياً مبدعات من مستوى متوسط في حين تتكشف السوسيولوجيا التكوينية على العكس اكثر عملية عندما تكون بصدد دراسة المبدعات الكبرى في الادب العالمي. أي ان هذا التركيب لا يمكن ان يتعلق الا بالجماعات التي ينزع وعيها نحو رؤية شاملة للإنسان [5،ص238]

النقد السوسيولوجي عند الغربيين :

اولا : النقد الماركسي ودعاته :

احتل النقد الماركسي المكانة الراجحة فقد التزم دوماً بإدراج النشاط الفني في الصيرورة الاجتماعية التاريخية . فالماركسية لا تفسر أعمال الإنسان بمعزل عن استدراج الصراع الطبقي والبنية الاقتصادية التحتية فالعلاقة جدلية بين المجتمع والايديولوجيا والمعرفة والفن من جهة اخرى.

وعلى الرغم من ذلك لا يحق للماركسية ولا لغيرها ان تعتقد انها اسست منهجاً حقيقاً للنقد السوسيولوجي [6،ص73]

فالنقاد الماركسيون البنيويون يهتمون بوضع الادب في سياق بنى اجتماعية لا يمكن للايديولوجية الادبية ان تطمس دورها الحاسم المحدد في حين تنظر المدارس النقدية الأخرى الى عناصر الشكل الظاهر على سطح

العمل الادبي والى خلاصة موضوعه بوصفها نقطة النهاية بالنسبة للنقد الادبي [7، ص157].

يرى النقاد الماركسيون أن ثمة صلة بين السبيل الذي يشكل بها الادب المعنى من خلال نظم الكلمات او سرد القصص المستقاة من الحياة والسبل التي تحافظ بها الجماعات الحاكمة على سلطتها في المجتمع ومن ثم يمكن النظر مثلاً الى مسرحية (الملك لير) لا بوصفها مجرد سرد لحكاية مأساوية عن غدر وخيانة ذوي القربى فحسب بل بالنظر الى أنها تقدم رؤية للعالم كان من شأنها أن تساهم في ترسيخ هيمنة الارستقراطية في انجلترا في اواخر عصر النهضة.

وقد اهتموا ايضاً بدراسة السبل التي يتحدى بها الادب النظم الجائرة من خلال مرآة تعكس احداث التاريخ وتعرض مواطن الضعف التي تجعل تلك النظم مزعزعة وعرضة للتفسير والتغيير[8،ص157]

لقد حدد الماركسيون مصطلح (الايديولوجية) فهو مصطلح يشير الى عمليات انتاج الافكار والدلالات في عبارة (افكار الطبقة الحاكمة) فحسب بل تشمل التعود على انواع من ممارسات الانضباط الذاتي او من انماط تحديد المرء لهويته.

اما جهود النقد الادبي الماركسي فقد اهتم بدراسة العمل الادبي في سياقه التاريخي والاجتماعي والاقتصادي، فما كان لمسرحيات شكسبير ان تقدم لو لم تكن تتناول القيم والمثل المعبرة عن ثقافة الملكية الانجليزية. ومن ثم فإن جميع الاعمال الادبية تحددها عوامل اقتصادية عن طريق تحويل سبل ادارة الحياة المادية في المجتمع الى قيود وضوابط ثقافية.[8،ص158]

ويعد كتاب كريستوفر كودويل (دراسات في حضارات مختصرة) الصادر سنة 1983 نموذجاً للنقد الماركسي الذي يستند الى نظرية الانعكاس، فالأدب من وجهة نظره يجسد من خلال صور وأخيلة المشاعر الوجدانية السائدة في عصر ما.

ففي عصر النهضة مثلاً بدأت تبرز صورة جديدة للذات وهي صورة الفرد البرجوازي ذي الارادة العنيفة والذي يسعى الى امتلاك الثروة والنفوذ في العالم.

ويذهب بيير ماشيري في كتابه (نظرية الانتاج الادبي) الصادر سنة 1966 الى ان الادب الذي يعزز ايديولوجيا بعينها انما يسعى الى التوفيق بين التناقضات الاجتماعية فعلى سبيل المثال (بين العمال والرأسماليين او بين ايديولوجية الحرية الفردية وواقع الحتمية المادية).

الا ان التناقضات الاجتماعية وواقع الحتمية المادية تكمن في صمت داخل النص وتتمثل مهمة الناقد في كشف النقاب عن هذه التناقضات التي يسعى النص الى التوفيق بينها والحفاظ عليها[8، ص159-160]

وقد شهد مطلع عقد الستينيات ظهور بواكير الاعمال التي عرفت فيما بعد بأسم (ما بعد البنيوية) عكست هذه الاعمال تأثر الفكر الفرنسي بأفكار (نيتشه).

كذلك المفكر الذي ترجع قيمته في نظر المفكريين الفرنسيين الى رفضه التراث العقلاني للوصف الموضوعي والتراث المثالي الذي حول احداث العالم الواقعية الملموسة الى معانٍ او حقائق خفية او غير ملموسة لا يمكن اخضاعها للتجربة [8،ص160]

و يعد كتاب جان بول سارتر (الوجود والعدم) احد النصوص التي مهدت لما بعد البنيوية من حيث تناول بالتفصيل عدداً من الموضوعات التي اصبحت فرضيات اساسية لمفكري ما بعد البنيوية من امثال جاك دريدا ومن هذه الموضوعات (عدم وجود اساس للاسس القائمة)[8،ص162]

ومن كتب ما بعد البنيوية كتاب (نيتشه والفلسفة) لجيل دولوز الصادر سنة 1962 الذي يسلط الضوء على تقويض نيتشه للمثل الاعلى العقلاني للمعرفة ونقده الحضارة المسيحية في اضفاء معنى روحي على كل شيء ويرى نيتشه ان العالم المادي هو الساحة لصراع القوى وليس شيئا يخفى روحاً او معنى[8، ص162].

وفي عام 1966 ظهر كتاب ميشيل فوكو(الكلمات والاشياء) فهو يبحث عن النزعة العقلانية بشكل تاريخي ويبين انها تظهر وتتغير على مر الازمان فلم يعد ممكناً النظر الى العقلانية كما لو كانت ضوءاً بزغ فجأة في لحظة ما خلال القرن السابع عشر تم استمر ينير كل جوانب ماتفعله او نفكر فيه بنفس الطريقة [8،ص163]

ماركس وانجلز والنقد الاجتماعي:

كتب فروريك جيمسون كلمته الشهيرة (دائماً انحُ منحىً تاريخياً) واردف قائلاً ان هذا هو المبدأ المطلق الذي لازم كل فكر جدلي عبر مختلف مراحله حتى بات متوقعاً ان من يلتزم بنظرية ماركس في التاريخ يجب ان يراعيه في دراسته للمنتجات الثقافية والطريقة الاكثر طبيعة لتفسير تلك النظرية تتضمن ببساطة القناعة انه لا يمكن فهم تلك المنتجات ما لم توضع في السياق الاوسع للعلاقات الاجتماعية بشروطها التاريخية التي تنبثق منها تلك المنتجات.[8،ص 141]

لقد اكتسب ماركس من هيجل ذلك العدل ازاء فصل الشكل عن المضمون فكما قال هيجل " الشكل هو العملية الكامنة للمضمون المتعين ذاته" وماركس يقابل بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج التي تشكل معاً البنية التحتية الحقيقة للحياة الاجتماعية والبنية الفوقية القانونية والسياسية التي تتطور من ذلك الاساس، ومن هنا يتم وضع الفن في مكانه اي يصبح جزءاً من البنية الفوقية ويندرج في خانة الايديولوجيا.[8، ص142]

وقد عمل انجلز الذي كان بمثابة المسؤول عن مذهب ماركس بعد وفاته على تأكيد نقطة: ليس الأمر ان العامل الاقتصادي هو المسبب او الفاعل الأوحد فهناك تفاعل على اساس الضرورة الاقتصادية يؤكد نفسه دائماً في نهاية المطاف، فالاعمال الفنية العظيمة يمكن ان تقدم استبصارات عميقة لمواقف تاريخية معينة وبسبب طبيعة العمل الفني يمكن لهذه الاعمال ان تقدم لمحات لما سيصبح عليه العمل كوسيلة لتحقيق الذات في مجتمع شيوعي بلا طبقات.

فمثلاً اعجب انجلز ببلزاك الذي يعده استاذ الواقعية الذي يفوق زولا وتكمن عظمته في انه كان مضطراً الى ان يسير ضد اهواء طبقته واتجاهها السياسي وان يصور البرجوازية الصاعدة في هجماتها التقدمية على مجتمع النبلاء [8، ص143]

جهود انطونيو لابريولا:

من المحاولات الأكثر قيمة واهمية في هذه المدرسة هي محاولة لابريولا في كتابة (مقالات حول المفهوم المادي) 1896. فهي محاولة لتمييز المادية التاريخية عن اية نظرية مثل العوامل الاقتصاية والسياسية والثقافية...

ومن ناحية أخرى فأن نظرية ماركس ترى ان المجتمع هو مركب او كل متكامل له اسبقية الفهم عن بقية اجزائه المكونة، وكان لهذه المقولة تأثير على تروتسكي ولوكاتش الذي أعاد الصياغة الفلسفيةالماركسية في كتابة (التاريخ والوعي الطبقي 1923)

اما تروتسكي فهو من اكثر الكتاب الماركسين تميزاً فقد كان مؤهلاً لاستكشاف العلاقة بين الشكل والسياق التاريخي وذلك في كتاب (الادب والثورة1923) فنجده منظراً لموقع الادب داخل الكل الاجتماعي من منظور الماركسية الكلاسيكية كما الحد على الشكل اللفظي وعده عنصراً نشطاً يؤثر على الفكرة نفسها ومع ذلك فأن المضمون ينبع من البيئة الطبيعية والاجتماعية.[8،ص145]

اما اسهام جورج لوكاتش فقد كان اسهاماً حاسماً في كتابة (التاريخ والوعي الطبقي) فقد قد اطاراً نظرياً يتم من خلاله معالجة العلاقة بين الشكل الادبي والسياق الاجتماعي على نحو اكثر صرامة من ذي قبل فقد اكد على الأولوية المنهجية للمفهوم الماركسي عن الكلية الاجتماعية [8، ص63]

وعلى الرغم من جهود (لوكاتش) الذي تخل من بصيرة الا ان نظريته واجهت دحضاً صارماً من قبل احد رواد الحداثة الماركسيين وهو (بريخت) الذي يرى ان الواقعية ليست شكلاً بل يجب فهمها على نحو أوسع باعتبارها اكتشافاً للعلاقات السببية المعقدة للمجتمع [8، ص65]

لوسيان غولدمان والبنيوية التكوينية:

بلور لوسيان منهجاً دقيقاً يعتمد على مقولات كبرى منها مقولة (الكلية) و (البنية الدالة) المأخوذتان من (جورج لوكاتش).

والفكرة الأساسية للبنيوية التكوينية ان تكون الفئات الاجتماعية هي المبدعة الحقيقة للابداع الثقافي وعلم اجتماع الادب ينطلق للبحث عن تماثل البنية بين الفئة الاجتماعية وبين فكر العمل الادبي[6،ص75]

وقد اكد لوسيان على مفهوم (رؤية العالم) وهو الاستقطاب المفهومي الى اعمق مدى للاتجاهات الواقعية والوجدانية والفكرية وحتى الحركية لأعضاء مجموعة ما. وعلى عاتق الكاتب الكبير يقع نقل هذه الرؤية نحو اعلى قدر من الوعي ومن ثم الناقد سيشرع الى استخلاص رؤية معينة للعالم من داخل النص.

لقد اقترح لوسيان منهجاً متشدداً فهو يمنح سوسيولوجيا الادب ادراة اجرائية متينة وذلك بتحديد رؤية العالم كنموذج تفسيري [6،ص75]

وبناء على ماسبق فإننا نجد ان غولدمان يصف الرواية بأنها " قصة بحث عن قيم اصلية بصيغة متدهورة في مجتمع متدهور ويتجلى هذا التدهور واختزال القيم الاصلية الى المستوى الضمني ثم اندثارها باعتبارها حقائق اكيدة[9، ص107]

ويميز غولدمان مرحلتين للرواية في القرن العشرين:

1-موسومة بمحاولات تستهدف اعادة التماسك للفرد وذلك بربطه بوحدة مشتركة تتجاوز (اسرة، جماعة ثورية، امة) وتتطابق هذه المرحلة مع ازمة الرأسمالية واثر الايديولوجيات الاشتراكية على المجتمعات الرأسمالية الغربية.

مجلة اجتماعية إنسانية محكمه تعتمد لأغراض الترقيات العلمية تصدر عن كلّية الطف الجامعة /
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد 2636 لسنة 2023

2-التي دشنتها اعمال (جويس) و (كافكا) والتي امتدت الى موجة الرواية الجديدة الفرنسية في الخمسينات مروراً بروايات (سارتر) و (كامو) فهي مرحلة الاندثار التدريجي للشخصية الروائية التي فقد اسمها كما فقدت هويتها وتأكدها من وجودها.[9، 107]

ثانيا : معهد فرانكفورت ودعاته :

مع ان معهد فرانكفورت للابحاث الاجتماعية تأسس عام 1924 الا ان اعماله لم تأخذ اتجاهها النظري المتميز قبل عام 1930م عندما تولى ادراته الفيلسوف ماكس هوركهايمر (1895-1973) حيث ركز برنامجه على الالتزام بمشروعات في مجال العلوم الاجتماعية التجريبية تصب فيها تخصصات متعددة وان بقيت في اطار الفلسفة الاجتماعية الماركسية.

ولاتخرج ماركسية المعهد التي طورها هوركهايمر عن نطاق الفلسفة الماركسية التي اطلقها جورج لوكاتش بكتابه (تاريخ الوعي الطبقي) الذي صدر سنة 1923. ضمن جهة ينتمي ماركس الى التقاليد الاساسية للفلسفة الالمانية فهو بذلك وريث هيجل، ومن جهة اخرى فقد تطورت نظرية ماركس الاجتماعية والاقتصادية حيث قدمت وصفاً للرأسمالية في القرن العشرين[10، ص174]

يركز معهد فرانكفورت في المقام الاول على قضية العلاقة بين القاعدة والبنية الفوقية في الرأسمالية المتقدمة التي تجسدها اشكال العلاقة بين الحياة الاقتصادية والتطور النفسي للافراد وما يطرأ على تغييرات على العالم والدين والفن والقانون والعادات والرأي العام والثقافة السائدة. [10، ص175]

ونشر أعضاء المعهد اسهاماتهم حول نظرية الاقتصاد والبنية الطبقية والقانون واسلوب الانتاج اضافة الى مجموعة من اعمال نظرية وتجريبية حول الثقافة الجماهيرية والثقافة الرفيعة.

وقد أخذ كل من هربرت ماركوز واريك فروم على عاتقهما بحث الاندماج بين الماركسية والتحليل النفسي فقدما اطاراً يمكن من خلاله تفسير مصير الفرد في مجتمع ماركسي في فترة ما بعد الليبرالية تتزايد فيه السلطوية. [10، ص176]

وفي عام (1932) نشر المعهد في مجلته (البحث الاجتماعي) حيث ظهرت مقالاته الاولى عن الادب.

دور الناقد أدرونو (1903 – 1969)

على الرغم من دراسته في جامعة فرانكفورت الا انه لم يكن عضواً رسمياً في المعهد حتى عام (1938) اذ انه كان يشير اسهاماته في المجلة وتركزت مقالاته في نظرية الثقافة وفي مجال علم الموسيقى وعلم الاجتماع الموسيقي لا في مجال الادب ولم تظهر اسهاماته الادبية الا في خمسينات القرن العشرين [10، ص175]

دور لوفنتال في سوسيولوجيا الادب:

لقد وضع لوفنتال تصوراً عن نظرية مادية للادب ليصبح المنظر والممارس الرئيس لأتجاه مدرسة فرانكفورت في تناول الادب.

و رصد عيوب طبيعة النقد المعاصر واغفاله للجوانب النظرية والتاريخية ومن ثم هو نقد يعزل علم النقد عن كل اشكال الخطاب الراشد عن الفن ويصل الى نتائج منها انه يمكن فهم كل من شكل العمل الادبي ومضمونه فهماً كافياً وان لم يكن شاملاً بالنظر إلى السياقين الاجتماعي والتاريخي الذي انتج في ظلهما العمل الادبي ومن ثم يمكن تعليل المدى الذي يصل اليه التعبير عن ابنية اجتماعية بعينها في اعمال ادبية مفردة ومدى دور هذه الاعمال في المجتمع.[1،ص176]

واهم الاساسيات التي اثبتها لوفنتال الاهتمام بتلك الابنية الاجتماعية المتعلقة بالقاعدة الاقتصادية واستخدام التحليل النفسي لتعليل العلاقة بين الابنية الاجتماعية والفن.

والاهتمام بمبدأ (الوساطة) اي العملية التي تعيد بها الظواهر الثقافية انتاج القاعدة والطريقة التي ينعكس بها اسلوب تفكير الفنان في عمله الادبي.

وعلى الرغم من ان اعمال لوفنتال حددت الخطوط الرئيسة لنظرية علم اجتماع الادب المادي الا ان ادرونو يرى ان لوفنتال نجز عجزاً فادحاً في اعطاء قيمة جدلية حقة لاستقلال العمل الفني فلوفنتال يختزل الاعمال الادبية الى مجرد منصات ايديولوجية في صراع طبقي.[10، ص177]

دور هوركهايمر:

نجد بداية تشكل رأي مختلف في مقال نشره هوركهايمر (الفن، والثقافة الجماهيرية) عام 1941 في المجلة التي خلفت مجلة (البحث الاجتماعي) بينما كان المعهد منفياً في الولايات المتحدة.

ويتفق هوركهايمر مع ماركوز في كثير من الخطوط الرئيسية اذا ان كليهما يربط الفن بعالم خاص من التخيل الشخصي وبالحنين الى المشاعر كمشاعر الطفولة عند

الطبقة المتوسطة ويقوم بتفسير ذلك بقوله ((ان الفن المستقل ظاهرة حديثة على المستوى التاريخي تحود انفصال النشاط الجمالي عن المنفعة الاجتماعية)) ثم يربط الفن بالتحرر الانساني من الاحتياجات الاقتصادية ويرى ان هذه الحرية لا تتحقق بسهولة وانما تتحقق عن طريق انتاجه لا عن طريق استهلاك الفن [10، ص179].

ويفترض هوركهايمر ايضاً انه اذا كانت الاعمال الادبية ذات طبيعة توصيلية مثل رسوم دزني المتحركة فهي لا تختلف عن اية سلعة ثقافية اخرى تؤدي تجربة وسائل الاعلام الى التشكيك في الطبيعة الايدولوجية لوسائل الاتصال الجماهيرية جزءاً لا يتجزأ من قوى الانتاج الادارية للرأسمالية المتقدمة.

واستمر هوركهايمر في اثارة مايبدو تحدياً لاتجاه كل من لوفنتال وماركوز بالتشكيك في قدرة الفن المعاصر على التوصيل والتأثير في المشاعر، وفي الثلاثينيات وجد هوركايهمر صعوبة متزايدة في صياغة نظرية اجتماعية مناسبة لرأسمالية القرن العشرين [10، ص179]

ومن ذلك يخلص هوركهايمر وادورنو الى مضمونين مهمين:

الاول: تداخل الفكر العلمي مع الخطوات الصناعية والإدارية يفترض استحالة توليد نقد حيوي للرأسمالية باستخدام مناهج علمية سائدة.

الثاني: ان تحجم وتقييد التأمل الذاتي النقدي داخل العقل التنويري يفترض ان السلطوية المتمثلة في الفاشية والرأسمالية الغربية او الماركسية السوفاتية هي نتاج التنوير.[10، ص182]

نتائج البحث

– ان سوسيولوجيا الادب منهج نقدي يدرس النص من الخارج لا من الداخل اي (دراسة المؤثرات الخارجية) للنص من بيئة وزمان ومكان وتاريخ وحالة نفسية واقتصادية وفكرية.

– ان الادب في منظور المنهج الاجتماعي هو ظاهرة اجتماعية.

– ان المبدع الاجتماعي لا ينتج ادبا لذاته وانما لمجتمعه.

– ان الاهتمام الاول للمبدع هو رصد الظواهر الاجتماعية للطبقة التي ينتمي اليها وايجاد الحلول لها وبهذا يكون الادب انعكاساً للواقع.

– ان سوسيولوجيا الادب تبلورت اسسها واركانها على يد الغربيين نتيجة الثورة الفرنسية.

– ان المبدع مادام عضواً في المجتمع فيمكن دراسته ككائن اجتماعي بكل ما يحيط به من ظواهر سياسية واقتصادية وفكرية وعندها نستطيع ان نجمع المعلومات من المنشأ الاجتماعي والوضع الاقتصادي فسيرة المبدع مصدر رئيسي في دراسته.

– التعامل مع النصوص الابداعية كوثائق اجتماعية تحمل معاني او قيماً لذلك المجتمع الذي ينتمي اليه النص.

– ان الفن الاصيل من وجهة نظر المنهج الاجتماعي هو تعبير عن العصر كله وترنيم ملامحه وتحديد ايديولوجيه.

– ان الابداع في الادب انما هو عنصر مكون للمجتمع فالكاتب لا يتأثر بالمجتمع فحسب بل ويؤثر فيه.

مصادر الدراسة

1-مدخل الى النقد الادبي الاجتماعي: ولبر سكوت، ترجمة ابراهيم حمادة، دار المعارف – القاهرة، 1982.

2-المنهجية في علم الاجتماع الادبي: لوسيان غولدمان،ترجمة: مصطفى المسناوي، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1981.

3-في النقد الاجتماعي: ادوارد كارديلي، ترجمة: احمد بلبع، دار المعرف – مصر، 1968.

4- العلوم الانسانية والفلسفة: لوسيان غولدمان، ترجمة: يوسف الانطاكي.

5-مقدمات في سوسيولوجيا الرواية: لوسيان غولدمان، تر ترجمة: بدر الدين عردوكي، دار الحوار، سورية، ط1، 1993.

6-نحو نقد سوسيولوجي: جاك دوبوا، ترجمة: قمري رشيد، مؤسسة الابحاث، بيروت، ط2، 1986.

7-الماركسية والنقد الادبي: اليكس كالينكوس، ترجمة: هاني حلمي المشروع القومي للترجمة – القاهرة، ط1، 2005.

8-الماركسية وما بعد البنيوية: مايكل راين، ترجمة: محمد هشام، منشورات المجلس الاعلى، القاهرة، ط1، 2005.

9-البنيوية التكوينية والنقد الادبي: جانفيف موييو، ترجمة: رشيد بنحدو، مؤسسة الابحاث العربية، لبنان، ط2، 1986.

10- مدرسة فرانكفورت وسوسيولوجيا الادب: اندرو ارجار، ترجمة: عزة مازن، منشورات المجلس الاعلى، القاهرة، ط1، 2005.